تطور النظرية الجغرافية

د. عبدالاله أبو عياش *

مقدمة **

هناك حقيقة جوهرية يتفق عليها الباحثون في فروع العلم المختلفة ، وهي ان النظرية العلمية هي ارقى انواع التفكير . والنظرية هي الهدف الرئيسي للبحث العلمي المنظم . وبناء النظرية العلمية جزء لا يتجزأ من حركة البحث العلمي بخطواتها المحددة الواعية . والبناء النظري لا يتكون جزافا ولا يعلو عشوائيا ، وانما يأتي نتيجة منهج علمي يخضع لقواعد واطر منهجية واضحة . والمنهج عبارة عن اسلوب بحث محدد يقوم على خطة واعية تتشابك عناصرها بعلاقات منطقية مترابطة . وكما يذكر احد المتخصصين في مجال التفكير العلمي ، فان صفة المنهجية هي صفة اساسية في العلم ، وان العلم في جوهره عبارة عن معرفة منهجية . لهذا فان مبدأ الخضوع لقواعد منهجية هو الميزة الرئيسية التي تميز المعرفة العلمية . (١)

والمعروف أن المنهج العلمي يبتديء بالملاحظة والوصف المنظم للظواهر، ثم يتدرج الى مرحلة التجريب لاختبار خصائص الظواهر الملاحظة . وبعد استمرار الاختبارات والتأكد من صحة الفرضيات المطروحة تتكون قوانين جزئية تشكل في مجموعها النهائي النظرية العلمية . وهكذا تصبح النظرية مصدر استنباط عقلي لتفسير الظواهر المتشابهة . فالمنهج العلمي اذن يسير في خطوات واعية منظمة ومدروسة بعناية من مرحلة الملاحظة الى التجريب، فالاستنتاج العقلي ، ثم الى التجريب مرة اخرى وهكذا . (٢)

والجغرافية كموضوع اكاديمي يبحث عن التجديد والتطوير ويسعى جاهدا لاكتساب الصفة العلمية الجادة ، لا بد أن يتبع في دراساته منهج البحث العلمي المنظم والهادف . وحتى يرتقي التفكير العلمي الجغرافي الى أعلى مستوياته ، فعلى الباحثين في هذا الميدان أن يكثفوا جهودهم للوصول الى النظرية الجغرافية . والحقيقة ان تخبط الجغرافية منذ منتصف القرن

---

* استاذ الجغرافيا بجامعة الكويت .

** أود أن أشكر التالية اسماؤهم على مراجعاتهم وتعليقاتهم على اصول هذه الدراسة : الدكتور علي المباح عميد الآداب بجامعة الامارات ، والدكتور محمد الفرا والدكتور أمين محمود الاساتذة بجامعة الكويت .

التاسع عشر وحتى الخمسينات من هذا القرن ، وعدم قدرتها على التطوير النظري لابحاثها يعزى بشكل رئيسي الى فقدانها للمنهجية العلمية القادرة على بلورة الاتجاهات النظرية . وهذا لا يعني بطبيعة الحال ان العوامل الاخرى كالافتقار الى تحديد واضح لماهية الموضوع ومحتواه لم يكن لهما تأثير سلبي على تأخر التطور النظري في الجغرافية . ولكننا أردنا التركيز على المنهجية العلمية كقاعدة تميز حركة التطور العلمي ليس في ميدان الجغرافية فحسب وانما في بقية فروع العلم والمعرفة الاخرى .

هـــدف الدراســـة

تهدف هذه الدراسة الى استعراض تطور المحاولات النظريـــــة في الجغرافية والجهود المكثفة التي بذلت في مجالات بلورة الاتجاهات النظرية ، والحاجة الى استمرار البحث في هذه الاتجاهات . وحتى تتحدد المناقشة في اطار واضح ، فلا بد من الانطلاق من مجموعة من البديهيات التي تشكل القاعدة الاساسية لهذا الموضوع . ان هذه البديهيات تشكل المنطلق التي تتحدد في ضوئها أهداف وأغراض هذه الدراسة .

١ ــ البديهية الاولى : ان العلم في تغير وتطور مستمر بحكم الديناميكية المميزة لحركته وتبدله . وبدون هذا التغير والتطور تنتفي صفة العلمية عن أي موضوع . فالعلم حركة دائمة هدفها التشخيص المستمر للعلاقات المنتظمة (regularities) وتحديد القوى والعوامل والمتغيرات التي تؤثر في انتظامها . وهو في بحث دؤوب لاستكشاف الظواهر المحيرة (Puzzling) (Phenomena) وحل المشكلات المستعصية التي تواجه الانسان في حياته اليوميـــة .

٢ ــ البديهية الثانية : ان الجغرافية في محاولتها للتمسك بالمنهجية العلمية تحكم على ذاتها بروح العلم وجوهره . وهذا يعني أنها تتابع عملية التغير والتطور ، رغم ما يعتريها من تعثر وكبوات . والذي يتابع تطور الفكر الجغرافي قديمه ومعاصره يلاحظ حركة التغير والتبدل الواسعة التي شهدها الموضوع ، رغم الفترات التي مرت بها الجغرافية وكـــادت ان تفقد فيها هويتهـــا .

٣ ــ البديهية الثالثة : ان عملية التغير والتطور العلمي يصاحبها عادة انقسام في الاراء والاجتهادات . فهناك الاتجاهات التقليدية التي تتمسك بما هو كائن على حساب ما يمكن أن يكون . وهي بهذا تقف معارضة لعملية التغير والتبدل . أي ان مثل هذه الاتجاهات تحكم على ذاتها بالتوقف عن الابداع والابتكار . وهي لهذا توقف المعرفة في حلقة اجترارية من المعلومات الرتيبـــة والمكـــررة .

وهناك الاتجاهات المتجددة التي تعتبر ما هو كائن كأساس ومنطلق لما يمكن أن يكون . وهي بهذا تساير العلم في روحه وجوهره . ولقد ظهرت مثل هذه الاتجاهات المتجددة في تاريخ العلم منذ غاليلو الى كوبرنيكس فنيوتن وداروين واينشتاين ، وحتى اللحظات الحالية . وهي لا بد ان تظهر وتتكشف مستقبلا بحكم استمرار تراكم المعرفة وتسارع التطور التكنولوجي في العالم.

ان سلسلة التغيرات والتطورات العلمية كانت تثبت دائما نقطة لا يختلف فيها اثنان ، وهي ان الاتجاهات العلمية الحديثة بما تحمله من حقائق جديدة تفرض نفسها على مجرى العلم . وهي بالتالي تدفعه باستمرار خطوات رائدة الى الامام . لذلك فان توقف الجغرافية عن التبدل والتغير يعني افتقارها للعطاء ، كما يعني هذا ايضا ان دورها العلمي ينتفي وينتهي بحكم قبولها لعملية التوقف والجمود هذه ، لان الموضوع يخرج في هذه الحالة من الدائرة العلمية للفروع الاخرى ، ويحكم على ذاته بالعزلة والتقوقع . وهذا ما عانت منه الجغرافية كفرع اكاديمي خلال الفترة الممتدة من منتصف القرن الماضي وحتى الخمسينيات من هذا القرن .

النظرية العلميـــة

المعروف أن النظرية العلمية تتطور من خلال اتباع منهجين رئيسيين همـــا :

أ ـــ المنهج الاستقرائي Inductive Approach

ب ـــ المنهج الاستدلالي أو الاستنتاجي Deductive Approach

أ ـــ المنهج الاستقرائي : ويسمى أحيانا بمنهج التجريبية حيث تبتديء عملية بناء النظرية من خلال عملية الملاحظة لظاهرة او ظواهر معينة . ومن خلال هذه الملاحظة تتم عملية بناء الفرضيات التي لكي يتم التأكد من نصوصها تتعرض للاختبار . ثم بعد الاختبار نعود الى الظاهرة لمعرفة مدى صدق الاختبار على الواقع العملي . ومن خلال تكرار الملاحظة لظواهر أخرى مماثلة واختبارها بنفس الطريقة ، يمكن أن تتكون قاعدة عامة تصلح للتطبيق على جميع الظواهر المماثلة . واذا أمكن تطبيق هذه القاعدة وثبتت صحتها في جميع الحالات ، فانها تتحول الى نظرية استقرائية (Inductive Theory)

فالنظرية الاستقرائية اذن هي نتاج عملية البحث العلمـــي الجـــاد والمنظم . هذا البحث الذي لا تتكامل أهدافه الا بتحقيـــق الخطـــوات التالية (٣) .

١ ــ تحديد مشكلة البحث ، بمعنى اختيار وصياغـــة ما يواجهه الباحث من صعوبات في فهم ظاهرة ما او عدة ظواهر .

٢ ــ اعطاء خلفية نظرية عن دراسات وابحاث لها علاقة بالمشكلة .

٣ ــ تحديد المفاهيم والتعريفات الرئيسية المتعلقة بالظاهـــرة او الظواهر المدروسة .

٤ ــ صياغة فرضية عامة (General Hypothesis) تعطي تصورا عاما لمشكلة البحث . ولما كان قياس الفرضية العامة بصورة مباشرة لا يمكن بلوغه ، لذلك تصاغ فرضيات ثانوية .

٥ ــ طرح مجموعة من الفرضيات التي تتبلور حول مجموعة من المتغيرات (Variables or Parameters) التي يمكن أن يكـــون لها علاقة بالمشكلة ، ويوضح كل منها جزءا من مشكلة البحث ويكون حلالا من حلولها .

٦ ــ توفير البيانات الضرورية المتعلقة بالمتغيرات المنتقاة . ويمكن توفير مثل هذه البيانات عادة اما من مصادرها العامة ، او عن طريـــق دراسات ميدانية تقوم على القياس المباشر لخصائص الظاهرة .

٧ ــ تحليل البيانات بعد تنظيمها وجدولتها ليتسنى بواسطتها اختبار الفرضيات المطروحة . وحتى يكون التحليل دقيقا ، فلا بد من اختيار أدوات التحليل المناسبة وتطويعها لخدمة الاهداف المرسومة .

٨ ــ تفسير نتائج التحليل للحكم على مدى قبولنا او رفضنا للفرضيات المطروحة . وحتى يكون حكمنا على الفرضيات دقيقا ، فلا بد من اخضاع الفرضيات الى اختبارات موضوعية عسيرة حتى يمكن التأكد من نتائج البحث . وهذا يعني انه اذا اخذ اي باحث نفس البيانات واخضعها لطرق القياس والاختبارات نفسها ، لامكنه التوصل الى نفس النتائج .

فاذا تكرر وجود الظاهرة بخصائصها وسلوكها تحت الظروف ذاتها تكونت قاعدة أولية . واذا تعددت الظواهر وتشابهت الاستنتاجات ، تكونت قاعدة اكثر تطورا . وهكذا تستمر العمليات الاستنتاجية حتى يمكن أن تتكون قاعدة عامة يمكن ان يشتق منها قوانين تفسر الكثير من الظواهر . ويطلق على مجموعة القوانين هذه بالنظرية العامة . (General Theory)

ب ــ المنهج الاستدلالي او الاستنتاجي . يعتبر الاستنتاج النظري المشتق من خلال اتباع هذا المنهج اكثـــر الاستنتاجات النظـــرية ابداعا وابتكارا . فبناء النظرية من خلال هذا المنهج يعتمد على بناء نظري فوقي

يقوم على بناء ارتباطات منطقية لعناصر المشكلة . اي ان البناء النظري يبتديء بالاستدلال وينتهي بملاحظة الظاهرة ، بعكس ما هو متبع في المنهج الاستقرائي . فهو يبتديء بتكوين النظرية قبل أن يبحث في ملاحظةالظواهر، وقبل أن تتم عملية تكوين الفرضيات . وعندما يكتمل البناء النظري القائم اساسا على العلاقات المنطقية المترابطة ، يعود الباحث لاختبارها في الواقع العملي . اي ان الباحث يبدأ اولا بالتفكير المنطقي والعلاقات المنطقية لتكوين النظرية ، ثم ينتقل بعدها الى التطبيق بعد اكتمال البناء النظري .

تطور النظرية الجغرافية

ان ما قصدناه من خلال مقدمة وهدف هذه الدراسة هو التمهيد للبحث في نشأة وتطور النظرية الجغرافية . فالبحث عن النظرية الجغرافية ليس ظاهرة حديثة كما يبدو للبعض ، وانما هي قديمة تعود الى أيام الاغريق والرومان . بل ان هناك من يعيدها الى الهنود . ففي هذه الحقبة الزمنية كانت المشكلة الملحة التي تواجه الانسان هي عملية تحديد مكانه ومنطقته ، وخصائص المنطقة او المناطق المحيطة بهذا المكان . وقد قضى الانسان قرونا طويلة كانت جل محاولاته فيها تتركز على اكتشاف كنه الارض وابعاد سطحها . كذلك فقد كثف الانسان جهوده لمعرفة الكثير من الاسرار الكامنة وراء حدود مترامية الاطراف خلف بحار ومحيطات مجهولة .

ومنذ زمن فلاسفة الاغريق وحتى فترة الاكتشافات الجغرافية ، كان ذهن الجغرافي ينصب على محاولات لرسم صورة واضحة المعالم للارض . والحقيقة انه ظهرت اشكال وصور مختلفة للارض عكست النظريات البسيطة السائدة في المراحل المختلفة من تطور الموضوع ككل . الا أن هذه الاشكال كانت تفتقر الى الدقة بحكم ضعف ادوات القياس المعروفة في تلك الفترة . فمن المعروف ان الاراء المتعلقة بشكل الارض كانت تصفها بأنها اسطوانية ودائرية ومسطحة واحيانا كروية . ومن الامثلة على هذه الخرائط خريطة استرابو (٤) ، وخريطة (O & T) وخريطة الادريسي وغيرهم (٥) .

فالخلفيات النظرية لتحديد خصائص المكان وصور الارض كانت محورا اساسيا لجوهر العمل الجغرافي . فاذا عدنا الى أيام الاغريق ، وجدنا ان ايراتوستين (Eratosthenes) عرض نظرية واضحة ومتكاملة بين فيها كيفية قياس محيط الارض ، بعد أن تأكد في هدى استنتاجاته المنطقية بكرويه شكلها . وعلى الرغم من أن نظريته كانت سابقة للامكانات التكنولوجية المتاحة له ، فقد عمل ضمن امكاناته على اختبارها . وقام من أجل ذلك بقياس المسافة بين اسوان والاسكندرية معتمدا على الفروق في درجات

ميلان الشمس بين المدينتين . واستطاع من خلال ذلك ، ورغم بساطة ادوات القياس المتوفرة له أن يقيس محيط الارض بدقة تقترب مما حققته افضل القياسات الحديثة (٦) .

وتطورت النظرية الجغرافية عند العرب بحكم تأثرهم بالحضارة الاغريقية . وكان التأثير الاغريقي قد بدأ يبرز واضحا مع بداية القرن التاسع الميلادي . وتميزت الجغرافية النظرية العربية بأنها كانت جزءا مما اطلق عليه المستشرق الروسي كراتشكوفسكي بالجغرافية العلمية (٧) . والمعروف ان الجغرافية العلمية عند العرب بلغت أوج مجدها خلال العصر العباسي وخاصة في عهد المأمون .

لكن الملاحظ أن الجغرافية النظرية عند العرب شأنها في ذلك شأن الجغرافية النظرية عند اليونان ، كثفت جهودها باتجاه الجغرافية الفلكية . وقد كان هذا منطقيا ، اذ أن المشكلة التي كانت تواجه الجغرافيين في تلك الفترة كما ذكرنا هي استكشاف كنه العالم وابعاد الارض المجهولة . ولقد كانت الابحاث الفلكية مهمة للوصول الى هذا الهدف . ومن النظريات الجغرافية التي ظهرت عند الجغرافيين العرب تلك التي اطلقوا عليها بنظرية « قبة الارض » . وقد استخدمت النظرية كأساس لقياس خطوط الطول والعرض . وكان تعبير قبة يشير الى النقطة التي يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار . وهي تقع على ابعاد متساوية من الغرب والشرق والشمال والجنوب (٨) .

وهكذا فقد ساهم العرب في تطوير النظرية الجغرافية ، وشكلوا حلقة وصل علمية هامة ساعدت على استمرار النظرية الجغرافية التي انتقلت بعد انهيار الحضارة العربية الى أوروبا . ويذكر كراتشكوفسكي : « ومن الغريب بمكان ان نظرية « قبة الارض » الموجودة بالارين ربما وجدت طريقها الى أوروبا ، وربما ادت هناك الى ظهور نظريات كانت لها نتائج بعيدة المدى » (٩) . ولم تكن هذه النظرية هي الوحيدة التي انتقلت آثارها الى أوروبا ، فقد انتقلت اليها اثار الكثير من الجغرافيين العرب كالفزاري الذي طور مع اخرين جهاز الاسطرلاب ، والخوارزمي اشهر الرياضيين المسلمين ، وحنين بن اسحق اكبر مترجمي القرن التاسع الميلادي .

وفي أوروبا ، تطورت النظرية الجغرافية المتعلقة بشكل الارض مع مجيء غاليلو . وقد تحدى غاليلو مفاهيم العصور المظلمة ، واستطاع ان يقدم البراهين على كروية الارض ودورانها حول الشمس . وجاءت استنتاجات غاليلو لتؤكد الراي القائل بأن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية (Helio Centric Theory) . وكانت الكنيسة تضطهد كل من

يروج لمثل هذه الاراء لانها كانت تعتقد بأن الارض التي هي مبعث المسيحية هي مركز المجموعة الشمسية ، وهي بالتالي مركز الكون . (Geo-Centric Theory) وقد ادين غاليلو من قبل الكنيسة وتعرض للمحاكمة والتعذيب ، وكاد أن يدفع حياته ثمنا لنظريته عن دوران الارض .

وعندما فكر كولومبوس برحلته الى جزر الهند الشرقية عن طريق المحيط الاطلسي ، كان يستند بقوة الى النظرية القائلة بكروية الارض . ويبدو أن كولومبوس كان مقتنعا بشكل قوي بامكانية الوصول الى جزر الهند الشرقية بالابحار باتجاه الغرب . وكانت تقديرات كولومبوس مبنية على أساس امكانية الوصول الى هدفه باستخدام الطريق الجديد بحكم كروية الارض . ولو لم تكن لدى كولومبوس الدلائل النظرية الكافية لاقناع نفسه واقناع ملكة اسبانيا بذلك ، لما كان باستطاعته تحقيق هدفه .

والمعروف أن كولومبوس بنى قناعاته النظرية معتمدا على الثروة الجغرافية العلمية التي تركها العرب في اسبانيا خلال القرون الثمانية من وجودهم هناك . وهناك اراء تعتقد بأن كولومبوس استفاد من تفكير الادريسي ، وخاصة من كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » (١٠) . فالمعروف ان الادريسي كان مقتنعا بفكرة كروية الارض . ولقد تبلور هذا الاقتناع بشكل واضح في الكرة الارضية التي صنعها وأهداها لملك صقلية روجر الثاني . ويؤيد كراتشكوفسكي الاراء القائلة بأن اكتشاف العالم الجديد اعتمد الى حد كبير على النظرية الجغرافية العربية . ويذكر في هذا الخصوص : « وهكذا فمهما بدا الامر غريبا ، فان النظرية الجغرافيةالعربية قد لعبت دورا ما في كشف العالم الجديد » (١١) .

ان ما يمكن قوله اذن من خلال هذا الاستعراض التاريخي ان النظرية الجغرافية كانت موجودة ، وانها بلغت أوج نشاطها خلال فترة الاكتشافات الجغرافية . وقد كانت النظرية مشغولة بشكل اساسي بالمشكلة الملحة التي كانت تواجه الانسان فيما يتعلق بشكل الارض وأبعادها وخصائصها . والذي لا شك فيه أن الجغرافية كعلم كانت له عطاءاته الكثيرة في مجالات الاكتشافات الجغرافية ، وان هذا العلم بلغ أوج عنفوانه في خلال هذه الفترة .

ويعلق أحد الجغرافيين على هذه الناحية بقوله : « ان الاكتشافات الجغرافية كانت من الناحية التقليدية جزءا مهما من عملية الاستقصاء الجغرافي . والواقع ان الجغرافية احتلت اعظم مركز لها بين العلوم الاخرى في فترة ما يطلق عليه بالعصر الذهبي للاكتشافات ، والتي امتدت من القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر » (١٢) .

التراجع النظري

ان قوة الاندفاع التي جذبت الجغرافية نحو الاكتشـــافات شغلت الجغرافيين عن الاهداف العلمية الاخرى للموضوع . لهذا فعندما اكتملت الاكتشافات شعر الجغرافيون بمدى الفجوة التي فصلتهم عن الاهداف الاخرى للبحث الجغرافي . بل ان تلك الاهداف عانت من التشتت والضياع في خلال محاولات الجغرافيين لردم تلك الفجوة واللحاق بما فاتهم في ركب العلوم الاخرى . وحدث تراجع في ماهية القاسم المشترك الذي كان يحدد مجرى البحث الجغرافي .

ولان العلوم الاخرى كانت قد سبقت علم الجغرافيـــة في تحديـد مساراتها ، فقد حاول الجغرافيون اللحاق بها . وكانت نتيجة ذلك ان ضل الموضوع طريقه بين هذه العلوم . وأخذ يفقد بعض ملامح الشخصية التي ميزت الجغرافية خلال فترة الاكتشافات .

ومن خلال استعراضنا للعلوم التي ارتبطت بها الجغرافية ، نجد أن الموضوع كان يسير أحيانا باتجاه علم الانسان (الانثروبولوجيا) كما فعل راتزل وسمبل (١٣) . واندفع أحيانا أخرى باتجاه الجيولوجية كما يظهر في آراء ديفيس (١٤) ، ومرات أخرى باتجاه العلوم الانسانية كما ركز عليه سارو وباروز (١٥) . كذلك فقد ربطت الجغرافية نفسها مع التاريخ بحكـم الراي القائل بأن الجغرافية هي مسرح الاحداث ، وان التاريخ هو الاحداث التي تجري على هذا المسرح . بالاضافة الى ذلك ، فقد التصقت الجغرافية بالاقتصاد وتمسكت في مرحلة من مراحل تطورها بنظرية الموقع الاقتصادية التقليدية (١٦) . (Classical Location Theory)

ان هذا التشتت الفكري والتوزع ترك الجغرافية والجغرافيـين في مأزق ، وظهر اختلافهم واضحا في تحديد فحوى الدراسة الجغرافية . وكان من نتائج ذلك ان ضعفت الاطر النظرية للموضوع . كما ضعفت النظرية الجغرافية التي طورت وصقلت بشكل جيد خلال فترة الاكتشافات ، فهؤلاء الذين كانوا حتى وقت قريب متعلقين بالجغرافية كعلم قائم بذاتـه ، بدوا وكأنهم فقدوا هوية الموضوع . ويبدو أن الهدف الذي ربطوا أنفسهم به بشكل وثيق وركزوا عليه ، الا وهو الاكتشافات الجغرافية قد تحقق وانتهى . وهذا هو في العادة حال أي موضوع عندما ينتهي الهدف من وجوده ، فانه يقبع في هامش التطورات .

ان التراجع الذي أصاب الجغرافية في مفهومها ومحتواها ، وبالتالي في اطرها النظرية اتضح بشكل جيد في القرن التاسع عشر من خلال نشـــوء وظهور ما تسمى بالمدارس الجغرافية . وهذه المدارس عبارة عن اتجاهات وآراء متباينة حول مفهوم الجغرافية وما يجب عليها دراسته وتفسيره . ومن هذه المدرسة المعروفة في الكتابات الجغرافية بالمدرسة الحتمية بقيادة راتزل وسمبل . وهناك أيضا ما عرف بالمدرسة الامكانية التي تبلورت مفاهيمها في كتابات لوسيان فيفر وفيدال دي لابلاش . ومدرسة اللاندسكيب التي تبنى مفاهيمها كارل ساور وباروز (١٧) .

ورغم الاختلافات في آراء ومفاهيم هذه المدارس ، الا انها تتفق على الوصف الشامل لخصائص البيئة وانشطة الانسان والعلاقـــات المتبادلة بينهما . اي ان الوصف ، والذي غالبا ما اتصف بالبعد عن التنظيم ، هو الميزة التي طبعت البحث الجغرافي خلال اعمال هذه المدارس . ومع ذلك فقد ظهر بين الجغرافيين باحثون اتخذوا لانفسهم مسارات مختلفة عن هـــذه المدارس ، وبذلوا محاولات نظرية مستفيضة للخروج بقوانـــين وتعميمات للظواهر الجغرافية . الا أن هذه المحاولات لم تحقق الا نجاحا جزئيا محدودا في أهدافها . وتعتبر محاولات ريتر وهمبولت (Ritter and Humboldt) ممثلة لهذه الاتجاهات النظرية التي وضعت اللبنة الاولى من جديد في مســـار تطوير النظرية الجغرافيـــة . وكـــان ريتـــر يعتقد في كتاباتـــه النظرية (Theoretical Essays) انه من خلال دراساته لحالات كثـــيرة يمكنه استنتاج قوانين وتعميمات لتكوين نظرية جغرافية . لكن المشكلة ان ريتر قضى حياته بحثا وراء الحالات الخاصة بدون أن يتمكن من تكوين نظريته المرجـــوة (١٨) .

وكذلك فعل همبولت الذي كان يبحث عن أسس عامة (General Principles) لتمكنه من فهم وحدة العلاقة في الواقع العلمي (١٩) . فأهمية الاعمال الجغرافية لكل من ريتر وهمبـــولت تنبـــع من محاولاتهما المستمرة لتطوير القواعد والقوانين لتفسير الظواهر الجغرافية . وعلى الرغم من عدم تمكنهما من تحقيق أهدافهما في مجال بناء النظرية الجغرافية ، الا انهما شقا الطريق الصحيح في مجال البحث الجغرافي . وقد أعادت محاولاتهما تلك بعض ملامح الشخصية التي كادت تفقدها الجغرافية في مرحلـــة التراجع النظـــري .

ان التركيز على الحالات الخاصة وعلى مناطق واقاليم معينة في دراسات

الجغرافيين خلال القرن التاسع عشر وحتى النصف الاول من القرن العشرين ، حول الموضوع الى ما يطلق عليه بمخزن حقائق (Store house of facts) (٢٠) . وكانت معلومات هذا المخزن عبارة عن تجميع تراكمي لكل الخصائص الطبيعية والبشرية التي درسها الجغرافيون خلال هذه الفترة . ولم يكن هناك بطبيعة الحال من علاقات واضحة بين هذه المعلومات لتشدها في وحدة واحدة ، لانها كانت متخصصة في حالات متفرقة ومناطق متباينة . والحقيقة ان هذا التجميع التراكمي لا يشكل قصورا في الجغرافية ، لان هذه المعلومات اضافت الكثير لمعرفتنا عن سطح الارض . ولكن القصور والنقد الموجه لهذه الناحية ان هذه التراكميات من المعرفة لم تكن منظمة ولم تتقيد بالخطوات المنهجية العلمية الهادفة الى بناء النظريات . والمعرفة عمل اساسي لكل العلوم ، وهي تراكمية كما ذكرنا ، ولكنها ليست النهاية في حد ذاتها . هذه حقيقة ليس فيها اختلافات ، لكن الاختلاف هو على الطريق المتبع لتحقيق المعرفة من خلال عمليات علمية منظمة تهدف الى تكوين النظريات والقوانين .

ان التخبط الذي عانت منه الجغرافية كاد ان ينقشع في بداية الثلاثينات من هذا القرن . ففي خلال هذه الفترة ظهر البناء النظري الذي قدمه الجغرافي الالماني والتر كريستالر (Christaller) (٢١) . وقد عرف العمل الذي قام به هذا الجغرافي بنظرية المكان المركزي (Central Place Theory) . لكن المشكلة أن عمل كريستالر الذي كان يعتبر الاول من نوعه في الدراسات الجغرافية لم يجلب انتباه الجغرافيين الا في وقت متأخر . ففي عام ١٩٥٦ قام كارلايل Carlisle بترجمة النظرية من اللغة الالمانية الى اللغة الانجليزية مما اتاح الفرصة للجغرافيين للاطلاع عليها . وعلى الرغم من أن ادوارد اولمان (Ullman) هو أول من وجه الاهتمام الى النظرية ، الا أن الاهتمام الفعلي بها لم يتحقق الا بعد أن تمت عملية الترجمة الكاملة لها (٢٢) . والمدهش أن جغرافيا كهارتشورن (Hartshorne) وهو رائد في الكتابات الخاصة بالاتجاهات النظرية في الجغرافية ، لم يشر الى هذه النظرية في كتاباته . وهذا في حد ذاته يدعم رأينا من أن الاهتمام بنظرية كريستالر جاء متأخرا جدا . ولهذا يمكن القول انه ربما لم يكن من قبيل الصدفة ان تبتديء ما يطلق عليها بالثورة المفاهيمية في الجغرافية (The Conceptual Revolution) والاتجاه المكثف نحو الجغرافية النظرية مع نظرية كريستالر (٢٣) .

الاتجاهات النظرية الحديثة

ان التطور السريع الذي شهدته الجغرافية منذ مطلع الخمسينات سار بزخم لم يعرفه الموضوع من قبل ، فمع ظهور الاراء المجددة ، وخاصة تلك التي بلورها هارتشون واستعرض فيها ما عانته الجغرافية ، وما يجب على الجغرافيين عمله لتطوير موضوعهم بدأت اتجاهات الموضوع تتحدد بشكل أفضل (٢٤) . ولقد أضاف ادوارد اكرمان (Ackerman) المزيد من الصقل لهذه الاتجاهات (٢٥) . وقام بنجي (Bunge) وآخرون باضافات مستمرة ادت الى تحديد اكثر دقة ووضوح للدور الذي يجب أن تقوم به الجغرافية لتطوير نظرياتها الخاصة بها (٢٦) .

ولقد طرح هارتشورن سؤالا مهما حول اهمية الجغرافية في تكوين النظرية العلمية . وهو يذكر في هذا الصدد :

« ان أية ظاهرة سواء كانت طبيعية او بشرية مهمة في الجغرافية الى المدى والدرجة التي تحدد علاقاتها المتداخلة مع الظواهر الاخرى في نفس المكان ، وترابطها مع الظواهر الاخرى ، والتباينات المكانية لهذه الظواهر ، وكذلك مجموع التباين المكاني وعلاقته وأهميته للانسان » (٢٧) .

ويضيف هارتشورن أيضا :

« وتبرز من بين المشكلات التي تشغل بال الجغرافيين مشكلة محيرة . وهذه المشكلة هي فيما اذا كانت الجغرافية قادرة كغيرها من العلوم على تطوير اسس المعرفة والقوانين والتعميمات ، مثبتة بذلك ادعاءها بأنها تستحق أن تحمل اسم العلم . او ان وظيفتها هي مجرد وصف لاشياء فريدة لا حصر لها » (٢٨) .

وفي نفس الوقت طرح اكرمان سؤالا موازيا في الاهمية لسؤال هارتشورن تساءل فيه عن المشكلات التي يجب أن يدرسها الجغرافي ويركز من حولها ابحاثه . وكان جوابه ما أطلق عليه بالمشكلات الملحة (The Overriding Problems) . والمشكلات الملحة في نظره تلك التي ترتبط بالانسان وتؤثر في حياته سواء كانت طبيعية أم بشرية . ويكمن الطريق لحل هذه المشكلات في اتباع خطوات علمية منظمة تهدف في النهاية الى بناء القوانين والنظريات .

يقول اكرمان في هذا الصدد :

« العلم عبارة عن بحث للانتظام (Search for Regularity) الحاصل في الظواهر المتنوعة . ان هذا التقصي يتم من خلال الملاحظة

والوصف الدقيق ، ومن خلال تكوين الفرضيات وتنبؤ المجهول ، ومن ثم اختبار الفرضيات من خلال التجريبية والملاحظة ، وبناء النظرية من خلال الفرضيات التي تم اثباتها . وتصبح هذه النظرية في حد ذاتها قاعدة لبناء المزيد من الفرضيات » (٢٩) .

وقد لخص بنجي مجمل الاراء التي طرحها هارتشورن واكرمان وغيرهم من الجغرافيين بقوله : « ان الكثيرين من الجغرافيين اخذوا يدركون المشكلات التي واجهت تطور وتقدم الجغرافية . ولهذا فهم يركزون اليوم على اهمية الاطر النظرية والمفاهيمية ، بالاضافة الى الدلائل الواقعية » (٣٠) . وعقب ديفز (Davies) على هذه الاتجاهات والتحولات النظرية بالاشارة الى « ان ما يأمله الجغرافيون هو أن تتوفر لديهم النظرية الجغرافية والاساليب العلمية الحديثة التي ستتيح للجغرافي الفرصة لمعالجة محور المشكلة بشكل مباشر » (٣١) .

ان سلسلة التغيرات والتطورات التي شهدتها الدراسات النظرية في الجغرافية دفعت منهج البحث الجغرافي من مرحلة الاعتماد على المنهج الفردي (Idiographic Approach) الى مرحلة التعلق بالمنهج التعميمي (Nomothetic Approach) . فالمنهج الفردي كان يركز على حالات خاصة بدون الاهتمام بتكوين القوانين والنظريات . بينما ركز المنهج التعميمي على محاولات مستمرة لتكوين القوانين والنظريات . ويشير بيتر لويس (Lewis) الى هذه الناحية بقوله : « ان المنهج التعميمي هو أهم التطورات المنهجية في الجغرافية ، لانه المنهج الاكثر علمية وموضوعية » (٣٢) .

اسباب التركيز على النظرية الجغرافية

ان الاندفاع الشديد وراء النظرية الجغرافية يمكن أن يعزى الى عدة عوامل نوجز أهمها :

اولا : حجم المشكلة الجغرافية . ان تعقد بيئة الانسان نتيجة الاثار التي تركتها الثورة الصناعية والمتمثلة بالانفجار السكاني والتسارع الحضري والتطور التكنولوجي السريع وآثاره الواسعة على المجتمعات البشرية ، ضاعفت من اعداد وانواع المشكلات التي أخذت تواجه الجغرافي . يذكر الجغرافيان البارزان شورلي وهاجيت في هذا المجال أن حجم المشكلة الجغرافية التي واجهت ريتر وهمبولت في النصف الاول من القرن التاسع عشر لم تكن لتزيد عن واحد بالالف من حجم المشكلة التي يواجهها الجغرافيون المعاصرون (٣٣) . ان هذه التبدلات والتطورات السريعة اقتضت من الجغرافيين ان يعيدوا تقييم موضوعهم ودوره في عملية البحث العلمي .

ثانيا : ان النظرية كما اوضحنا في بداية هذه الورقة هي نتاج ارقى انواع التفكير العلمي . فهي عبارة عن بناء منطقي متكامل يعتمد على استقراء واستنتاج العلاقات حول ظاهرة أو مجموعـــة من الظواهـــر ومكوناتها وعناصرها . وبدون الاعتماد على هذا المنطق ، فان الباحث يفقد القدرة على فهم سلسلة التغيرات والتبدلات التي تتعرض لها الظاهـــرة او الظواهر المتشابهة . فالمنطق الذي هو قاعدة العلم يشكل اساس التفكير العلمي . وبدون الاعتماد على المنطق والعلاقات المنطقية يبقى التفكير الجغرافي متخلفا وغير قادر على مواكبة مسيرة التفكير العلمي وتطوره الدائم .

فالجغرافي في غياب القاعدة النظرية وخلفياتها يصبح عاجزا عن تحديد اطار البحث الذي يرغب القيام به . وفي غياب هذا الاطار يضيع البحـــث ويتشعب في متاهات تفقده الهدف الذي وضع من اجله . واطار البحث يتحدد هو الاخر بالهدف ، ويحدد بالتالي العناصر التي يرغب البـــاحث في دراستها ، وتتبلور من حول هذه العناصر مجموعـــة من الفرضيات التي تشكل المنطلق في اتجاه بناء النظرية العلمية الجغرافية .

ثالثا : ان الجغرافية نتيجة التخبط الذي مرت به ابقاها متخلفة عن بقية العلوم الاجتماعية والانسانية بما يعادل خمسا وعشرين عاما (٣٤) . وكان على الموضوع من اجل ان يتخطى الفجوة التي فصلته عن بقية العلوم ان يضاعف الجهد في طريق بناء النظرية الجغرافية .

وقد بدا مدهشا للعديد من الجغرافيين المعاصـــرين انه بعد الاف الدراسات الجغرافية المعتمدة على الطريقة الاستقرائية ، فان الموضوع لم ينجح ، فيما عدا نظرية كريستالر وبعض المحاولات الحديثة ، في تكوين نظرية جغرافية واحدة . وقد شكل هذا في حد ذاتهمأزقا منهجيا للجغرافية كموضوع يريد ان يثبت هويته العلمية . فالمفروض حسب المنهج العلمي انه بعد تكوين مئات الفرضيات واختبارها ان تنبثق نظرية او على الاقل نموذج يمكن تعميمه على بعض الظواهر او بعض المناطق ان لم يكن كلها .

الخلاصـــة

النظرية هي نتاج تفكير علمي منظم يسير في خطوات تدرجية محكمـــة تترابط فيها العلاقات بشكل منطقي دقيق . وهناك في العلم منهجان للوصول الى النظرية ، المنهج الاستقرائي الذي تتكون باتباعه النظرية الاستقرائية ، والمنهج الاستدلالي الذي تنجم عنه النظرية الاستنتاجية .

لقد بدا واضحا من خلال استعراضنا لتطور النظرية الجغرافية انهـــا مرت في مراحل مختلفة . كما ان تطور هذه النظرية كان انعكاسا للمشكلات

الملحة التي واجهها الانسان خلال الفترة الطويلة الممتدة من عهد الاغريق الى الرومان ، فالى العرب والاوروبيين . فالمشكلات الملحة الاولى التى واجهت الانسان كانت تتعلق بمكانه على سطح الارض وخصائص ذلك المكان وما يحيط به من مظاهر وأنشطة لها تأثير مباشر على حياته . فاتجهت النظرية الجغرافية لتحديد شكل الارض ، وسبر غور الابعاد التي كانت تمتد وراء افاق مجهولة بنى الانسان من حولها الكثير من الخرافات والاساطير . ولقد لاحظنا من خلال صفحات هذه الدراسة ان النظرية الجغرافية منذ اليونان ومن قبلهم الهنود وحتى فترة الاكتشافات الجغرافية كانت موجهة لاعطاء تحديد دقيق لشكل الارض وابعادها . لكن النظرية الجغرافية التي غالبا ما اعتمدت على التفكير الاستنتاجي بدأت تضعف خلال مرحلة الاكتشافات الجغرافية . والسبب في ذلك أن التركيز خلال هذه المرحلة انصب على نواحي المعرفة التي كانت تتراكم بسرعة نتيجة ما كانت تضيفه حملات الاكتشافات المستمرة من معلومات جديدة عن المناطق المكتشفة ،

ومع اكتمال الاكتشافات الجغرافية ، واستنفاذ الاهداف التي ربطت الجغرافية بها نفسها خلال هذه الفترة ، بدأ الجغرافيون يواجهون سؤالا ملحا حول الدور الذي يمكن أن يلعبوه ، والحقيقة أن الجغرافية بعد الاكتشافات الجغرافية واجهت مأزقا علميا حادا . ولقد جاء هذا المأزق نتيجة التركيز على اهداف الاكتشافات الجغرافية والابتعاد عن الاهداف العلمية الاخرى . وهكذا وجدت النظرية الجغرافية مع مطلع القرن التاسع عشر انها أخذت تواجه تراجعا ملموسا في أطرها ومفاهيمها ومحتوياتها . ومن هنا كانت بداية الصراع المفاهيمي بين ما عرف بالمدارس الجغرافية . وعلى الرغم من ظهور بوادر مشجعة في اتجاه النظرية الجغرافية في القرن التاسع عشر، وخاصة من قبل ريتر وهمبولت ، الا أن الاتجاه النظري بقي بشكل عام ضعيفا .

ولقد تدعمت هذه البوادر مرة أخرى مع انبثاق نظرية كريستالر . الا أن هذه النظرية لم تلق الاهتمام الكافي الا بعد مرور أكثر من عشرين عاما على ظهورها . لكن مركز النظرية الجغرافية ازداد قوة مع ظهور اتجاهات نظرية قوية مع نهاية الاربعينات وبداية الخمسينات من هذا القرن .

ويمكن القول أن الزخم الذي اكتسبته النظرية الجغرافية جاء نتيجة عدة عوامل أهمها : تزايد حجم المشكلة الجغرافية ، والاهتمام المتزايد بالمنهج النظري العلمي كحجر زاوية في البحث الجغرافي ، والرغبة الملحة لتضييق الفجوة العلمية التي فصلت الجغرافية عن غيرها من العلوم .

الحواشـــي

(١) نؤاد زكريا ، **التفكير العلمي** ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، ١٩٧٨ ، ص ٣٠

(٢) **نفس المصدر** ، ص ص ٣١ — ٣٤

(٣) توفيق فرح ، فيصل السالم ، **مقدمة في طرق البحث في العلوم الاجتماعيـة** ، الكـويت ، جامعة الكويت ، ١٩٧٧ .

(٤) شريف محمد شريف ، **تطور الفكر الجغرافي** ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٩ ، ص ٥٠٥

(٥) عبد الرحمن حميدة ، **اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من اثارهم** ، دمشـق ، ١٩٦٩ ، ص ٣٠٦

(٦) شريف محمد شريف ، **نفس المصدر ، ص ٣٢٥ — ٣٤**

(٧) أ.ي ، كراتشكوفسكي ، **تاريخ الادب الجغرافي العربي** ، ترجمة صلاح الدين هاشم ، القاهرة ، جامعة الدول العربية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ .

(٨) **نفس المصدر** ، ص ٧٣

(٩) **نفس المصدر** ، ص ٧٤

(١٠) عبد الرحمن حميدة ، **نفس المصدر** ، ص ٣٠٣ — ٣١٤

(١١) أ.ي. كراتشكوفسكي ، **نفس المصدر** ، ص ٧٥

(١٢) W. K. Davies, The Conceptual Revolution in Geography, London, Uni. of London Press Ltd., 1972, p. 11.

(١٣) Ellen Semple, Influences of the Geographic Environment on the Basis of Ratzel's System of Antropogeography, N.Y., Henry Colt & Co., 1911.

(١٤) W. M. Davies, Geographical Essays, Dover, N.Y., 1954.

(١٥) Carl Sauer The Morpsology of Landsctpe, Calif., Uni. of Calif. Publication in Geography, Vol. 2, 1965.

انظر أيضا

Harlan Barrows, "Geography as Human Ecology," Annals, AAG., Vol. 13 (1923), pp. 1-14.

(١٦) انظر نظريات الموقع التقليدية في :

R.H.T. Smith, et. al., (eds.), Readings in economic Geography, Chicago, Rand McNally & Co., 1969.

(١٧) نؤاد الصفار ، **دراسات في الجغرافية البشرية** ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣ ، ص ٤٣

(١٨) Richard Hartshorne, Perspective on the Nature of Geography, Chicago, Ill., Rand McNally & Co., 1959.

(١٩) Ibid., pp. 146-47.

(٢٠) Change Magazine, Report on Teaching, Vol. 9, No. 7, July 1977.

(٢١) Walter Christaller, Central Places in Southern Germany, Carlisle Baskin (Trans.), Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall Inc., 1966.

(٢٢) Edward Ullman, "A Theory of Location for Cities," Amer. Jour. of Sociology, May, 1941, pp. 853-64.

(٢٣) W.K. Davies, Op. Cit.

(٢٤) R. Hartshorne, Op. Cit.

(٢٥) Edward Ackerman, "Where is a Research Frontier," Annals AAG., Vol. 53 (1963), pp. 429-40.

(٢٦) W. Bunge, Theoretical Geography, Lund, Sweden, 1963.

(٢٧) R. Hartshorne, Op. Cit., p. 46.

(٢٨) Ibid., p. 146.

(٢٩) E. Ackerman, Op. Cit.

(٣٠) W. Bunge, Op. Cit.

(٣١) W. Davies, Op. Cit., p. 21.

(٣٢) Peter Lewis, "Three Related Problems in the Formulation of Laws in Geography," The Professional Geographer, Vol. 17 (1965).

(٣٣) R.J. Chorely and P. Hagget, Models in Geography, London, Menthuen Co., 1967, p. 31.

(٣٤) E. Ackerman, Op. Cit.